الباب الثالث

الأفكار الوافدة والمشكلات الاجتماعية الناجمة عنها.. وموقف الإسلام منها

الفصل الأول

الإسلام هو المنهاج الذى يحقِّق الوحدة بين المسلمين

حقيقة الوحدة بين المسلمين :

وتتمثل حقيقة الوحدة بين المسلمين فى :

١ ـ وحدة الاتجاه والفكر، بأن يكون توجه المسلمين على المستوى الفردى والجماعى واحدًا، وكذلك أصول أو قواعد الفكر عندهم واحدة حتى إذا كان هناك اختلافٌ فى مسألة مَّا لم يكن الاختلاف اختلاف تضادٍّ، وتنافرٍ، وتناحرٍ، بل اختلاف تنوع لإثراء الحياة ، وتنميتها.

٢ ـ وحدة السلوك والعمل ـ وهى بلاشك ثمرة وحدة الاتجاه والفكر ـ ومضمونها: ألا يكون فى سلوك المسلمين وعملهم ما يتناقض مع توجهاتهم، وأفكارهم التى يعتنقون، ولا ما يتناقض مع بعضه البعض.

أهمية الوحدة بين المسلمين :

وتظهر أهمية الوحدة بين المسلمين فى :

١ ـ حُسن توظيف الأمة لكل طاقاتها وإمكاناتها بحيث تنجح فى تحقيق رسالتها، وأداء واجبها بأقل التكاليف، ومِنْ أقصر طريق، إذ لا يستوى ما تؤديه أمَّة بين أبنائها تآلف وتناسق، مع ما تؤديه أمَّة بين أبنائها شقاق وفُرقة.

٢ ـ وبقاء الأمة عزيزة الجانب، مسموعة الكلمة، محروسة بعين الله ورعايته، يهابها الأعداء، ويعملون لها كل حساب وحساب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

٣ ـ وعلوٌّ منزلة الأمة ، ورفعتها فى أعين غيرها من الأمم، الأمر الذى قد يقود هؤلاء إلى الدخول فى الإسلام، والالتزام به، والعمل له، وحينئذ يكون لنا مثل أجر هؤلاء، انطلاقًا من قوله ﷺ :

« مَنْ دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجورِ مَنْ تبعه لا يُنقص ذلك من أجورهم شيئًا. . . » الحديث (١) .

أدلة وجوب الوحدة بين المسلمين، ونبذ الفُرقة :

ولأهمية الوحدة بين المسلمين على النَّحو الذى تقدَّم جاءت أدلة كثيرة من الكتاب والسنَّة تدعو إليها، وتُبيِّن وجوبها، كما تذمُّ الفُرقة، وتُحذر منها ومن عواقبها، ودونك بعض هذه الأدلة :

قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾ [الأنعام] .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران] .

وعن عرفجة بن شريح رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إنه ستكون هنات، وهنات(٢)، فمن أراد أن يفرِّق أمر هذه الأمة وهى جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا مَنْ كان» (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رجلا يقرأ آيةً، وسمع رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، قال: فأخبرتُ النبىَّ ﷺ فعرفتُ فى وجهه الكراهة، فقال: «كلاكما مُحسن، ولا تختلفوا، فإن مَنْ كان قبلكم اختلفوا ، فهلكوا» (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب العلم: باب مَنْ سنَّ سنَّةً حسنةً أو سيئةً، ومَنْ دعا إلى هُدى أو ضلالة ٤/ ٢٠٦٠ رقم ٢٦٧٤ ، وأبو داود فى: السنن: كتاب السُّنة: باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم ٤٦٠٩ كلاهما من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ واللفظ لمسلم.

(٢) الهنات: جمع هنَة، تأنيث هَنْ، وقيل: واحدها هنَتْ، وتطلق فى الأصل على كلِّ شىء، والمراد بها هنا: الفتن والشرور الحادثة، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/٢٥٦.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب حكم مَنْ فرَّق أمر المسلمين وهو مجتمع ٣/ ١٤٧٩ رقم ٥٩، وأبو داود فى : السنن: كتاب السُّنَّة: باب فى قتل الخوارج ٤/ ٢٤٢ رقم ٤٧٦٢، وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٤١ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب منه ٤/ ٢١٣ .

الطريق الصحيحة لتحقيق الوحدة بين المسلمين :

والطريق الصحيحة لتحقيق الوحدة بين المسلمين ـ اتجاهًا وفكرًا، وسلوكًا، وعملا ـ إنما تكمن فى الإسلام وحده، لما يلى :

١ ـ أنَّـه من عند الله الموصوف بالكمال المطلق، المنزه عن كلِّ نقص، الذى ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير، وإذا كان الأمر كذلك فلابدَّ أن يكون معصومًا من الخطأ والخلل، جامعًا بين الثبات والمرونة، فيلتقى عليه الجميع، ويجدون فيه ما يلائم أحوالهم، وظروفهم فى كلِّ عصر، ومصر.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: كنتُ أكتبُ كلَّ شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتنى قريش، وقالوا: أتكتب كل شىء تسمعه، ورسول الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فِيه ، فقال : « اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرجُ منه إلا حقٌّ»(١) .

وهذا عكس مناهج أهل الأرض، إذ هى متعددة بتعدد واضعيها، وكلٌّ منها لا يخلو من خطأ أو خلل لنقص وضعف واضعه، وتبعًا لذلك فهى لا تصلح للتلاقى التام عليها، كما أنه ليس فيها ما يلائم أحوال جميع المخاطبين فى كلِّ زمان ومكان.

غاية ما فى الأمر : أنه ينبغى الاتفاق على أصول أو قواعد يجب اتباعها فى فقه الكتاب والسنة فقهًا صحيحا ؛ لئلا تتفرق بنا السُبل، وتزيغ بنا الأهواء، مثل: رد المتشابه إلى المحكم ـ الوقوف على سبب النزول أو الورود فيما له سبب نزول أو ورود لتحديد عموم الخطاب، وخصوصه ـ سؤال أهل الذكر عند عدم العلم ـ الالتزام بقواعد اللغة العربية دون تكلُّف أو تعسُّف. . . وهكذا.

٢ ـ وأنَّه دعا إلى الوحدة دعوةً صريحة تصل إلى حدِّ الإيجاب والفرض، كما

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب فى كتاب العلم ٤/ ٦٠ ـ ٦١ رقم ٣٦٤٦ .

حذر من الفرقة، وذمَّها فى كل أشكالها، وصورها، على نحو ما دلَّتْ عليه الآيات والأحاديث التى ذُكرت آنفًا.

٣ ـ وأنه تضمَّن طائفةً من المبادئ التى لو روعيت بحقٍّ، والتزم بها المسلمون بجدٍّ لأثمرت الوحدة فى أجلٍّ وأعظم معانيها، مثل:

أ ـ حرمة الإتيان بكل ما من شأنه إيغار الصدور، والوقوع فى النزاع والخصومات، وبالتالى الفرقة والقطيعة، كبيع الرجل على بيع أخيه حتى يأذن أو يترك، وخطبة الرجل على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك، وحرمة الظنِّ السيِّئ بغير دليل ولا برهان، وما يتبع ذلك من: التجسس، والغيبة، وحرمة التناجى بين اثنين إلا بإذن الثالث، وحرمة أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، أو الرشوة، أو الغش، أو السرقة، أو الغصب، وحرمة النميمة، ونحوها، ويمكن مراجعة الآيات والأحاديث الدالة على ذلك من الكتاب والسنة.

ب ـ ووجوب الإصلاح بين الطوائف المؤمنة المتخاصمة، وإذا لم يتم الإصلاح فليكن القتال للبغاة.

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات].

جـ ـ الإخلاص مع اتباع السُّنَّة المتمثلة فى المحافظة على الفرائض، والأركان من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والمواظبة على النوافل من السنن الراتبة، وغير الراتبة، وصدقة التطوع، وصيام التطوع، والحج تطوعًا، والعمرة تطوعًا، والإكثار من تلاوة القرآن، ومحاسبة النفس، والتوبة، والدعاء، والضراعة، ونحوها، فإن هذه جميعًا تكون سببًا فى محبة الله للعبد، وحينئذ يجمع عليه القلوب، وتكون الألفة التى هى أساس الوحدة.

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبى ﷺ قال ـ فى الحديث القدسى: «يقول الله تعالى: مَنْ عادَى لى وليا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىءٍ أحبَّ إلىَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ

سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورِجْلَهُ التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنه. . .» الحديث [1].

وعن أبى هريرة ـ أيضًا ـ أن النبى ﷺ قال: « إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل، فقال: إنِّى أحبُّ فلانًا، فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل، ثم ينادى فى السَّماء فيقول: إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبُّه أهل السَّماء، ثم يُوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغضَ عبدًا دعا جبريل، فيقول: إنِّى أُبغِضُ فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السَّماء: إن الله يُبغضُ فلانًا فأبغضوه، قال: فيُبغضونه، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض» [2].

د ـ وتوحيد وقت أداء بعض الطاعات، مثل الحج، حيث يلتقى المسلمون من كل أنحاء الأرض فى يوم واحد هو يوم عرفة، ومثل الصيام، حيث يصومون شهرًا محددًا من كل عام هو شهر رمضان.

هـ ـ ورعاية الآداب الاجتماعية من التزاور والسؤال عند الغياب، وبذل النصيحة، وطلاقة الوجه، والهدية، والمواساة، وإظهار المحاسن، وإخفاء المعايب، والوفاء بحقِّ الصحبة، والعفو عن الهفوات والزَّلات، وإفشاء السلام، وإجابة الدعوة ونحوها، فإن هذه الآداب إذا روعيت أثمرت المحبة والمودة، وحينئذٍ يكون الترابط والوحدة.

٤ ـ وطاعة ولى الأمر فى العسر واليسر، والشدة والرخاء، والمنشط والمكره مادامت فى المعروف، فإن هذه الطاعة تؤدى إلى الوحدة، وتقضى على الشقاق والفرقة، وهكذا يحمل الإسلام فى طياته كلَّ ما يحقق الوحدة، ويقضى على الفرقة، وليس ذلك فى أىٍّ من مناهج أهل الأرض.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق: باب التواضع ٨/ ١٣١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر : باب إذا أحب الله عبدًا ٤/ ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧.

الفصل الثانى
المشكلات الفكرية والسُّلوكية
التى يعانى منها المجتمع المسلم اليوم

حال المجتمع المسلم قبل ظهور المشكلات الفكرية والسَّلوكية:

عاش المجتمع المسلم منذ تأسيسه على يد النبى ﷺ حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين مجتمعًا محافظًا تحكمه أفكار واحدة، مصدرها الكتاب والسُّنة ، وتسوده سلوكيات مستقيمة هى التطبيق العملى لهذه الأفكار.

حقًا لم يخل هذا المجتمع من أفكار غريبة، وسلوكيات منحرفة عن المنهج الإسلامى، لكنها فى جملتها كانت قليلة لا تمثل مشكلة، والخطر كل الخطر عندما يكثر الخبث، ويتحول من مجرد ظاهرة إلى مشكلة تعطِّل مسيرة الحياة، وتحول دون النهوض والتقدم، ومن ثمَّ تُعرِّض المجتمع للهلاك والبوادر.

وقد لفت النَّبىُّ ﷺ النظر إلى ذلك ـ يعنى الخطر المرتب على كثرة الخبث ـ فى حديثه الذى ترويه عنه أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش إذ تقول :

إنَّ النبى ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول : « لا إله إلا الله، ويل للعرب مِنْ شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم مِنْ ردم يأجوج ومأجوج [1] مثل هذه» وحَلَّق بإصبعه الإبهام والتى تليها.

قالتْ : فقلتُ: يا رسول الله، أنهلِكُ، وفينا الصالحون؟

قال: «نعم إذا كثر الخبث» [2] .

---

(١) قال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز، المعروف عند العرب بجبل قاف فى إقليم داغستان : قبيلتان، تسمَّى إحداهما (آقوق)، والثانية (ماقوق) فَعَرَّبهما العرب بـ(يأجوج ومأجوج)، وهما معروفان عند كثير من الأمم ، وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب، ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال، والشرق فى روسيا، وآسيا، وقد كان لذى القرنين معهما جولة، وستكون الجولة الثانية مع عيسى عليه السلام فى آخر الزمان، انظر : محاسن التأويل المعروف بتفسير القاسمى ١١/ ١٠٠ بتصرف.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الفتن، وأشراط الساعة: باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٤/ ٢٢٠٨ من عدة طرق لزينب بنت جحش بهذا اللفظ، وبمثله.

أبرز المشكلات الفكرية والسُّلوكية التى يعانى منها المجتمع المسلم اليوم:

وبمرور الزمن تبدَّلت الحال، وأخذت تظهر فى المجتمع المسلم بعض المشكلات الفكرية والسُّلوكية والتى من أبرزها:

تفسير الحياة وأصل الوجود تفسيرًا ماديًّا ـ تفسير الوطنية والقومية تفسيرًا عنصريًا ـ الحرية المطلقة لكلٍّ من الذكر والأنثى ـ الطبقية والتمايز الاجتماعى ـ السُّفور والتبرج ـ الربا ـ الرشوة ـ الغش ـ المخدرات ـ العقوق ـ قطيعة الرحم ـ عدم احترام الكبير ورحمة الصغير ـ الفرقة والتمزق ـ التأخر فى جانب عمارة الأرض ـ الكبت والقهر ـ حكم الفرد المطلق والشمولى... وهلم جرا.

أسباب بروز المشكلات الفكرية والسلوكية التى يعانى منها المجتمع المسلم :

ولاشك أن هناك أسبابًا كانت وراء بروز كثير من المشكلات الفكرية والسلوكية التى يعانى منها المجتمع المسلم، وأهم هذه الأسباب :

١ـ عدم رعاية الضوابط الشرعية فى التعامل مع النموِّ الاقتصادى:

فقد منَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا ـ نحن المسلمين ـ بنموٍّ وتقدم اقتصادى عجيب تمثَّل فى ثروات هائلة لم تكن فى حسابنا، ولم نكن نفكِّر فيها بالمرَّة، مثل: النفط، والحديد، والذهب، والفضة، والمنجنيز، واليورانيوم.. وغيرها، ولم نراع الضوابط الشرعية فى التعامل مع هذا النمو والتقدم، والتى تتمثل فى:

أ ـ أن يكون فى أيدينا لا فى قلوبنا، حيث كان من دعائه ﷺ عندما يريد الانصراف من أىِّ مجلس قوله :

« ... ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولامبلغ علمنا... »(١).

ب ـ وأن يؤدى حقَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه : إذ يقول سبحانه :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

[التوبة : ١٠٣]

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج].

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه الترمذى فى : السُّنن: كتاب الدعوات: باب منه ٥/ ٤٩٣ رقم ٣٥٠٢ من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب».

جـ ـ وأن ينفق باعتدال وتوسط، فلا تقتير، ولا إسراف، إذ يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

د ـ وألا يكون معه تنافس وأحقاد؛ إذ الرزق أو القوت مقدر عند الله أزلا، فعلام التنافس إذًا، والحقد؟!

يقول النبى ﷺ: «انظروا إلى مَنْ هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (١).

وفى رواية: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فضل عليه فى المال، والخَلْق، فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه مِمَّنْ فضل عليه» (٢).

وحين لم نراع هذه الضوابط: ركنَّا إلى الدنيا واطمئننا بها، وتركنا الدفاع عن الحرمات وحماية المقدسات، فشاعت بيننا ما قدَّمنا من مشكلات فكرية وسلوكية، ولفَّتْنا الشقوة والتعاسة مِنْ كُلِّ ناحية، وصدق النبى ﷺ إذ يقول:

«تعس عبدُ الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة(٣)، إن أُعطىَ رضى، وإن لم يُعطَ سخط، تعس، وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش(٤)»(٥).

٢ ـ سيطرة عدوِّنا علينا:

ولـمَّا ركنَّا إلى الدنيا على النحو الذى تقدم، وتركنا العمل فى عمارة الأرض، وأعرضنا عن حكم الله، غزانا عدوُّنا ـ وكان قد أعدَّ نفسه الإعداد الجيِّد علميا، وعسكريا ـ فغلبَنا وسيطر علينا، وحرص فى فترة سيطرته أن يفسح المجال لثقافته، وأخلاقه، وهى بلاشك تتنافى مع مبادئ شرع الله الحنيف، مع التضييق على الثقافة الإسلامية أن تأخذ طريقها إلى العقول والقلوب، فأنشأ المدارس، والمعاهد، والجامعات

(١، ٢) الحديث بروايتيه أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه ٤/ ٢٢٧٥ رقم ٢٩٦٣ من حديث أبى هريرة مرفوعًا.

(٣) الخميصة: ثوب من خزٍّ ـ حرير ـ أو صوف مُعْلَم، وقيل: لا يُسمى خميصة إلا أن يكون أحمر أو أسود وله أعلام، وكانت من لباس الناس قديمًا، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٣٢٢.

(٤) انتقش: استخرج ما فيه بالمنقاش، والمعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد مَنْ يُخرجها منه بالمنقاش، وفى الدعاء عليه بذلك: إشارة إلى عكس مقصوده، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ١٧٠، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى ٦/ ٨٢ ـ ٨٣ بتصرف.

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد: باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤/ ٤١ ـ ٤٢ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه.

الأجنبية فى بلادنا، وفتح المجال للبعثات العلمية إلى بلاده، واهتمَّ بالإعلام فى كل صوره، مع صبغه بثقافته هو لا بثقافتنا ـ نحن المسلمين ـ وغيَّر مناهج التعليم بما يخدم ثقافته، ويقضى على ثقافة الأمَّة، وحارب المعاهد الشرعية بكل ما لديه من أساليب ووسائل، وأقام الجمعيات السرِّية الهدامة ليمارس من خلالها نشاطه : كالماسونية وغيرها، ولما ثارت الأمة فى وجه هذا العدو، وقاومته، اضطر إلى الرحيل عسكريا، تاركًا وراءه صورًا عديدة من السَّيْطرة الثقافية، والسياسية، والاقتصادية ، والإعلامية، والتربوية، والإدارية... ونحوها، الأمر الذى كان سببًا فى بروز المشكلات الفكرية والسلوكية، والتى مازال المجتمع يعانى منها أشد المعاناة.

٣ ـ التقليد السَّلبى لا الإيجابى :

ثم كان التقليد السَّلْبى لا الإيجابى، وقد نشأ من قعودنا ـ نحن المسلمين ـ عن أداء دورنا ورسالتنا فى الأرض، واشتغال عدوِّنا بالعمل فى مجال عمارة الأرض بالليل والنهار حتى سيطر وساد، ولم نجد مَنْ يُرشدنا ويأخذ بأيدينا للنهوض مرةً أخرى على أساسٍ من مبادئ ديننا القويم بل وجدنا مَنْ يغرِّينا ، وربما يلزمنا بتقليد هؤلاء ، وليتَه كان تقليدًا فى النافع والمفيد، فذلك مما لا يرفضُه الإسلام، بل يدعو إليه ويرغِّب فيه، وإنما كان تقليدًا فى الضارِّ المُهلك، وهو مرفوض شكلًا وموضوعًا.

وقد أخبر النبى ﷺ بهذه الحال على سبيل التحذير، فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لتتبعُنَّ سَنَنَ[1] الذين من قبلكم شِبرًا بشبر[2] ، وذراعًا بذراع[3]، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لاتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ»[4] .

وفى رواية : « لتتبعُنَّ سُنَّةَ مَنْ كان قبلكم باعًا بباع[5] ، وذراعًا بذراع، وشبرًا

---

(١) السَّنن: الطريقة والمثال، يُقال : بنوا بيوتهم على سَنَنٍ واحد أى طريقة واحدة، ومثال واحد، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤٥٦ .

(٢) الشِّبر: ما بين طرفى الخنصر والإبهام بالتفريج المعتاد، انظر : المعجم الوسيط ١/ ٤٧٠ .

(٣) الذِّراع من الإنسان : من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٣١١.

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب العلم: باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/ ٢٠٥٤ رقم ٢٦٦٩ .

(٥) الباع : مسافة ما بين الكفيْن إذا انبسطت الذِّراعان يمينًا وشمالا، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٧٦.

بشبر، حتى لو دخلوا فى جُحر ضبٍّ لدخلتم فيه »، قالوا : يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: « فمن إذًا »[1] .

٤ ـ عدم الالتزام بأصول وقواعد المنهج العلمى فى الإسلام :

وكان عدم الالتزام بأصول وقواعد المنهج العلمى فى الإسلام من أهم أسباب بروز المشكلات الفكرية والسلوكية التى يعانى منها المجتمع، إذ من أصول وقواعد المنهج العلمى فى الإسلام :

أ ـ التأكيد على الدليل ؛ إذ يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] .

ب ـ وأنَّ مصادر المعرفة هى: الوحى، العقل، الحواس، ولكلٍّ مجاله الذى يعمل فيه على النحو المذكور فى فصول مضت، وإدخال كل واحد منها فى مجال عمل الآخر يؤدى إلى خلل وفساد لا نهاية لهما.

جـ ـ وأن الغاية من التعليم والتعلُّم هى : الظَّفَر برضوان الله وجنَّته ، إذ يقول النبى ﷺ :

« لا تَعلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس، فمَنْ فعل ذلك، فالنَّار النَّار»[2] .

ويقول أيضًا : « مَنْ تعلَّم علمًا مِمَّا يُبْتَغى به وَجْهُ الله ، لا يتعلَّمه إلا ليُصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنَّة يوم القيامة»[3] .

د ـ وأنه إذا تعارض العلم اليقينى القطعى مع العلم الظَّنِّى التخمينى، ولم يمكن الجمع بينهما، فالعلم القطعى اليقينى مُقدَّم على الظنِّى التخمينى.

فمثلا بيَّن الله فى كتابه أن أصل الإنسان: الطين، فقال سبحانه:

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب افتراق الأمم ٢/ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩٤ ، حديث أبى هريرة مرفوعًا.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السُّنن: المقدمة: باب الانتفاع بالعلم والعمل به ١/ ٩٣ رقم ٢٥٤ من حديث جابر بن عبدالله مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّبَ عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ١/ ٣٧ بقوله: «رجال إسناده ثقات».

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب الانتفاع بالعلم والعمل به ١/ ٩٢ ، رقم ٢٥٢ من حديث أبى هريرة مرفوعًا.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة] .

وهذا بالتأكيد قطعى يقينى، إذ هو خبر من الله الذى يعلم السرَّ وأخفى، وقال نفرٌ من الغربيين كدارون مثلا: إن أصل الإنسان ينحدر من سلالة القرود، وذلك كلام ظنى تخمينى، إذ هو تصور بشر عاجز، قاصر لا يدرى حقيقة نفسه، ولا يُدرك كمال مصلحته، وواضح أن هناك تعارضًا لا يمكن معه الجمع، فلم يبق إلا ترجيح القطعى اليقينى، على الظنِّى التخمينى، وفى هذا الصدد يقول ربُّ العزَّة سبحانه:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

هذه غالبًا أصول المنهج العلمى فى الإسلام، وحين لم نلتزم بها كانت مضار ومفاسد لا حصر لها، تمثَّلتْ فى الانحرافات الفكرية والسلوكية بصورها المختلفة التى مضت.

علاج المشكلات الفكرية والسلوكية التى يعانى المجتمع منها فى الجملة:

ومما لاشك فيه أن العلاج الناجح هو الذى يأخذ كل مشكلة، ويعالجها على حدة، ولكن هناك علاج فى الجملة، وخلاصته:

١ ـ إحياء الالتزام بأصول وقواعد المنهج العملى فى الإسلام التى تقدمت.

٢ ـ التعامل مع النموِّ الاقتصادى فى ضوء الضوابط الشرعية التى سبق الحديث عنها.

٣ ـ السَّعى نحو التخلص التدريجى من سيطرة عدوِّنا علينا: فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، وتربويا، وإعلاميا، وقضائيا.

٤ ـ الترحيب بكل جديد عند غيرنا، شريطة ألا يتعارض مع مبادئ ديننا الحنيف، فالكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها، فهو أحقُّ بها.

* * *

الفصل الثالث

مشكلة الحريــة وموقف الإسلام منها

تعريف الحريــة :

لغــة : تأتى الحرية فى اللغة على معانٍ ، منها :

١ ـ الخلوص من الشوائب، تقول: حرَّر الذَّهب: خلَّصه من شوائبه، وذهب حرٌّ: لا نُحاس فيه.

٢ ـ الحَسَن الجميل مِنْ القول أو الفعل ، تقول : هذا من حُرِّ الكلام: حَسَنُهُ وجميلُهُ، وما هذا الفعل منك بِحرٍّ: بحَسَن ولا جميل.

٣ ـ كرم الأصل، تقول: هذا فرسٌ حُرٌّ: كريم الأصل، ورجل حُرٌّ: كريم الأصل لم يدنسه لؤمٌ أو غيره.

٤ ـ الانطلاق من إسار الحبس أو القيد، تقول: حرَّر العبد: أطلق سراحه، وحرَّر السجين: أزال عنه إسار الحبس، أو القيد[١] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا؛ إذ كريم الأصل إذا خلص من الشوائب، وفُكَّ إساره، وطُرحت عنه قيوده بدا حسنًا جميلًا، فكأن المعانى الأربعة تعاونت وتكاتفتْ فيما بينها لتبرز حقيقة الحرية فى صفاء جوهرها، وبهاء منظرها.

اصطلاحًا : أمَّا فى الاصطلاح فقد وردت لها عدَّه تعاريف منها:

١ ـ وقف الولد على طاعة الله، وخدمة المسجد، قال تعالى على لسان امرأة عمران:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾

[آل عمران]

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١/ ١٦٥ بتصرف.

قال الشيخ محمود شكرى الألوسى :

« وعلى كلٍّ هو ـ أى المحرَّر ـ من الحرية، وهى ضربان: ألا يجرى عليه حكم السَّبى، وألا تتملكه الأخلاق الرديئة، والرذائل الدنيوية »[1] .

وهذا التعريف كان شائعًا قديمًا عند أهل الكتاب، ولايزال إلى يومنا هذا، ويُعرف بالرهبنة، وهو مبنى على الفصل بين الدين والدولة، فالدين للكنيسة، والدولة للشعب!

٢ ـ إطلاق العنان للفرد يتصرف كما يشاء بما لا يتعارض مع القانون أو الدستور لكل دولة، وهذا مجمل تعريف الأمم المتحدة الوارد فى ميثاقها، ضمن وثيقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان[2] ، وخطورته تتلخص فى أن الدولة إذا كانت لا تعترف بالدين فى شؤونها، أو تحاربه، أو لا تُقيم له وزنًا فإن ذلك يعنى: استهتار الفرد بالدين أو منع الفرد من ممارسة حقِّه الفطرى.

٣ ـ انطلاق الفرد لإشباع حاجاته وملاذِّه بغير حدود، وهذا مذهب الفلسفة الحديثة المادية الاتجاه من لدن دارون إلى ماركس، حيث ترى أن الإنسان مجبور فى كلِّ تصرفاته غير مسؤول عنها، وتعلِّل لذلك: وقوع الفرد تحت تأثير الأوضاع الفاسدة فى المجتمع، أو أنَّه ضحيَّة التوجيه الفاسد فى التربية، أو نتيجة اختلال الغدد وأجهزة الجسم[3] .

٤ ـ إطلاق العنان للفرد يتصرف كما يشاء دون إيذاء لنفسه، وتعدٍّ على حدود الله، وإلحاق ضرر بالآخرين.

وهذا هو التعريف الإسلامى، وهو المعتمد، حيث يجعل الحرية عطاءً متبادلا بين الأفراد، والمجتمع، فكل حقٍّ يقابله واجب.

تصوير مشكلة الحرية فى الإسلام :

ويصوِّر نفر من الناس مشكلة الحرية فى الإسلام على هذا النحو قائلين :ـ

يتدخل الإسلام فى كل صغيرة وكبيرة تتصل بحياة الإنسان وذلك من شأنه سلب المرء حريته وإرادته أن يتصرف كما يشاء، وأن يشبع رغباته حسبما يحب.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: يتدخل الإسلام فى قضية الاعتقاد فيوجب قتل من

---

(١) انظر : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٣/ ١٣٤ المجلد الأول.

(٢) انظر : الشريعة المفترى عليها ، للمستشار سالم البهنساوى ص ١٥٤ ـ ١٥٥ بتصرف.

(٣) انظر : معلمة الإسلام، للأستاذ أنور الجندى: المجموعة الأولى ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ بتصرف.

ارتد عنه، ويتدخل فى قضية الإشباع الجنسى فلا تتم إلا بالزواج، ويتدخل فى الحرية الشخصية فلا تسافر المرأة، بل ولا تخرج من بيتها إلا مع مَحرَم، ولا تصوم صوم تطوع وزوجها شاهد إلا بإذنه، ويتدخل فى قضية التملك فيجيز بعض صوره، ويمنع البعض الآخر، ويتدخل فى قضية اللباس، فيفرض على المرأة اللباس، وبصورة معيَّنة، وكذلك يمنعها من مخالطة الرجال. . . إلى غير ذلك من كل ما يخالف الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فيما يتصل بوثيقة الحريات.

موقف الإسلام من الاتهامات المتعلقة بمشكلة الحرية :

والإسلام لا يقبل بهذه الاتهامات المتعلقة بمشكلة الحرية، ذلك أنَّه كرَّم الإنسان فمنحه حقوقًا خمسة هى: حق الدين ـ حق النفس ـ حق العمل ـ حق النسل ـ حق المال، وضمنها تدخل قضية الحرية بصورها الأربع التى وردت فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وهى: حرية الاعتقاد، وحرية الرأى، وحرية التملك، والحرية الشخصية، ولكنَّه لم يمنحه هذه الحقوق إلا فى جوٍّ من الضوابط والقيود التى تتيح للآخرين أن يتمتعوا بنفس هذه الحقوق، وما من نظام فى الدنيا، ولا دولة إلا ويضع على الحرية قيودًا، وضوابط، من أهمها:

١ ـ عدم الخروج على النظام العام فى الدولة، فلا حرية للطعن فيما تعدُّه الدولة من النظام العام بها، أو من المقوِّمات الأساسية للمجتمع، فالدول الملكية لا تسمح بالطعن فى هذا النظام الملكى، وكذا الدول الجمهورية لا تسمح بالطعن فى نظامها، والدول التى تتبنى النظام الرأسمالى لا تسمح بتبنِّى النظام الاشتراكى الشيوعى، والعكس.

٢ ـ لا حرية فى الخروج على الدستور والقانون.

٣ ـ لا حرية للطعن فى رؤساء الدولة، أو المساس بهيبتها، بل لا حرية للطعن فى رؤساء الدول الصديقة [١] .

أدلة منح الإسلام الحرية بصورها الأربع للفرد :

وأدلة منح الإسلام الحرية بصورها الأربع للفرد ذكرًا وأنثى كثيرة، جاء بها الكتاب والسنة، وعمل بها الصحابة ومن بعدهم، وأهمها:

---

(١) انظر : الشريعة المفترى عليها ، للمستشار سالم البهنساوى ص ١٨٨ بتصرف.

فى الحرية العقدية والشخصية :

قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس] .

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وتضمنت الوثيقة النبوية التى أبرمها النبى ﷺ مع اليهود: «وأنَّ يهود بنى عوف أمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، والمسلمين دينهم، ومواليهم، وأنفسهم، إلا من ظلم وإثم . . .»[1] .

وعندما بعث أبو بكر الصديق: يزيد بن أبى سفيان على رأس جيش قال له: «إنك ستلقى أقوامًا زعموا أنهم قد فرَّغوا أنفسهم لله فى الصوامع، فذرهم وما فرَّغوا أنفسهم له»[2] .

وأعطى عمر أمانًا لأهل إيلياء على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم[3] .

وأعطى عمرو بن العاص أهل مصر أمانًا على أنفسهم، وكنائسهم، وصلبانهم، ولا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم[4] .

فى حرية التملك :

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة] .

وقال تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[المائدة]

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، ص ٦١ .

(٢) انظر : فتوح الشام، ص ٨ بتصرف.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، ص ٤٨٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٠٢ .

في حرية الرأى :

قال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] .

سرُّ قتل المرتد :

وسِرُّ قتل المرتد: أن الإسلام ليس فيه عقائد تناقض العقول السليمة كالتثليث، وصكوك الغفران، وعليه فمن ينسب إليه النقصان، ويعلن الخروج عليه، والتعديل فيه إنما يفعل ذلك لحساب أعداء الإسلام، وهذه خيانة يستحق عليها القتل[١] ، وإذا كان جاهلا يُعَلَّم .

ويقول النبى ﷺ : «مَنْ بَدَّلَ دينهُ فاقتلوه»[٢] .

ومع هذا فإنه من رحمة الله بهذا الخائن أن سمح له بالعدول عن أقواله، وأفعاله، التي ارتد بها عن الإسلام حتى بعد صدور الحكم عليه بالردَّة، وإذا عدل سقط عنه الحدُّ.

عن أنس رضي الله عنه قال: ارتدَّ نبهان ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم أمكنِّى مِنْ نَبْهَانَ فى عنقه حبل أسود» فالتفتَ فإذا هو بِنَبْهَان قد أُخذ، فجُعل فى عنقه حبل أسود، فأتوا به النبى ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ السيف بيمينه، والحبل بشماله ليقتله، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، لو أمطت عنك، قال: وتدفع السيف إلى رجل، فقال: «اذهب فاضرب عنقه»، فانطلق به، فضحك نَبْهَان ، فقال: أتقتلون رجلا يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فخلَّى عنه[٣] .

سرُّ جعل القوامة على المرأة للرجل :

وسرُّ جعل القوامة على المرأة للرجل ما ذكره الله فى كتابه فى قوله:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] .

---

(١) انظر : الشريعة المفترى عليها ، للمستشار سالم البهنساوى ص ١٨٩ بتصرف.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب لا يعذَّب بعذاب الله ٤/ ٧٤ ـ ٧٥ من حديث ابن عباس مرفوعًا به .

(٣) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الحدود والديات: باب فيمن كفر بعد إسلامه ٦/ ٢٦٢ وعقب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله ثقات إلا أنَّ محمد بن المرزبان شيخ الطبرانى لم أره فى الميزان ولا غيره».

والتفضيل هنا للفوارق فى الخلقة والتكوين، ولإلزام الرجل بأعباء النفقات للزوجة، والأولاد، فقد أثبتتْ بحوث العلم، وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل فى كثير من جوانب الصورة، والسِّمة، والأعضاء الخارجية إلى ذرَّات الجسم والخلايا، ومع بلوغها سن الشباب يعروها المحيض الذى تتأثر به أفعال كل أعضائها، وجوارحها، وتدل مشاهدات أساطين علمى الأحياء والتشريح على أن المرأة تطرأ عليها تغيرات مدة حيضها، بأن تَقِلّ فى جسمها قوَّة إمساك الحرارة، فتنخفض حرارتها، ويبطئ النبض، وينقص ضغط الدم، وتقل عدد خلاياه، وتُصاب الغدد الصمَّاء، واللوزتان، والغدد اللمفاوية بالتغيُّر، ويختل الهضم، وتضعف قوَّة التنفُّس، ويتلبدُ الحس، وتتكاسل الأعضاء، وتتخلف الفطنة، وتقل قوَّة تركيز الفكر، وأشدُّ على المرأة من مُدَّة الحيض: زمان الحمل، حيث لا تستطيع قوى المرأة إبان حملها أن تتحمل من مشقة الجهد البدنى أو العقلى ما تتحمله فى عامة الأحوال، مما يختل معه نظام جسمها كله. ويستغرق بضعة أسابيع، وبذلك تبقى المرأة مريضة أو شبه مريضة مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل، وتعود قوَّة عملها نصف ما تكون عليه فى عامة الأحوال.

وإذا أضفنا إلى ذلك خصائص الأنوثة نفسها التى تجعل لديها قدرًا كبيرًا من العاطفة والوجدان، بينما لا تبلغ ذلك فى أمور الفكر والنظر، والرجل عكس ذلك تمامًا: فهمنا لماذا جعل الإسلام القوامة على المرأة للرجل، وأنَّ ذلك لمصلحتها ومصلحة الأولاد، ولو كانتْ بيدها وهى بهذا الوصف لأضرَّتْ بنفسها، وبالأولاد من حيث لا تدرى ولا تشعر[1].

سرُّ الحجاب للمرأة ومنعها الاختلاط بالرجال:

وسرُّ الحجاب للمرأة بيَّنه ربُّ العزَّة كذلك فى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

والاختلاط بالرجال ضرره معروف، فلو تعرَّت المرأة وخالطت الرجال لكانت سهامًا تتراشقها العيون الخائنة، ولحمًا سهلًا ميسورًا تتكالب عليه الذئاب، والوحوش الكاسرة، وحينئذ تختلط الأوراق، وتذهب رسالة المرأة بددا، وذلك أمر تأباه الفطرة السليمة، والعقل الراشد.

* * *

(١) انظر: معلمة الإسلام، للأستاذ أنور الجندى، المجموعة الأولى ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ بتصرف.

الفصل الرابع

مشكلة الطبقية.. وموقف الإسلام منها

أهم أسباب ظهور الطبقية فى المجتمع :

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من فئات متشابهة فى صفة أو أكثر، تُشكّل فيما بينها طبقة أو فئة، كالأغنياء والفقراء، والمتوسطين بين الأغنياء والفقراء، وكالمثقفين وغير المثقفين، والمتوسطين بين هؤلاء وأولئك، وكالعرب والعجم، وكالمسلمين وغير المسلمين، وكالمواطنين والوافدين... وهكذا، ولاشك أن هناك أسبابًا أدت إلى ظهور هذه الطبقية بين الناس وأهمُّها:

١ ـ **التفاوت فى الخِلقة:** إذ لم يخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الناس جميعًا نمطًا واحدًا، وإنما خلقهم متفاوتين، هذا ذكيٌّ ، وهذا بليد، وهذا بَيْن بَيْن، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا بَيْن بَيْن، وهذا مكتمل الخَلْقِ، وهذا ناقص الخِلقة، وهذا بَيْن بَيْن.

٢ ـ **اختلاف المكان** : إذ لم يجمع الله النَّاس جميعًا فى مكان واحد، وإنما فرَّقهم على المعمورة ، هذا موطنه البلاد الحارَّة، وهذا موطنه البلاد الباردة، وهذا موطنه البلاد المعتدلة.

٣ ـ **تفاوت النشاط والإتقان** : إذ الناس متفاوتون فى نشاطهم: هذا يعمل بكلِّ قواه، وهذا لا يعمل بالمرَّة، وهذا يعمل حينًا ويقعد حينًا، وهذا يتقن عمله، وهذا لا يتقن عمله، وهذا يتقن مرَّة ويُهمل أخرى.

٤ ـ **اختلاف الدين والاستقامة** : هذا صاحب دين، وذاك لا دين له، وهذا يتبع الدين الصحيح، وذاك يتبع الدين الباطل أو المُحَرَّف، وهذا مستقيم فى دينه، وذاك غير مستقيم.

٥ ـ **الميل إلى الاجتماع أو إيثار العزلة** : إذ فى الناس مَنْ يميل إلى الاجتماع بالناس، ولا يطيق فراقهم، وفيهم مَنْ يؤثر العزلة والتفرد.

متى تكون الطبقية مشكلة ؟ ومتى لا تكون ؟ :

وتكون الطبقية مشكلة إذا تجردت عن الإيمان والتقوى ؛ لأنها حينئذ ستنتهى لا محالة إلى هذه النتائج :

١ ـ محاولة الأقوياء والأغنياء استعباد وإذلال الضعفاء والفقراء، حيث يُصرُّون على الاستئثار بالحياة الرخيَّة على حساب هؤلاء الذين لا يجدون سوى الحياة الخشنة القاسية.

٢ ـ الإعجاب بالنفس، ثم الغرور، والتكبر، إذ يرى أصحاب المواهب والإمكانات، أن لديهم ما ليس لغيرهم، ومِنْ ثمَّ يُصابون بالإعجاب بالنفس، ثم بالغرور، والاستعلاء والتكبر، وهذه بداية الشرِّ والفساد، إذ يقول ربُّ العـزَّة سبحانه:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف].

٣ ـ شيوع الأضغان والأحقاد بين الناس، إذ الضعيف أو المحروم من النعمة حين يرى غيره يؤذيه بهذه النعمـة، ولا يملك الردَّ عليه، يمتلئ مِنْ داخله ضغنًا، وحقدًا، ويتمنَّى له زوال النعمـة، بل قد يعمل بصورة أو بأخرى على ذلك.

٤ ـ انتشار الاختلاف والفرقة ، الأمر الذى يؤدى إلى ذهاب ريح الأمـة وتمكن الأعداء.

قال تعالى : ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

أمَّا إذا صاحبها ـ أى الطبقية ـ الإيمان والتقوى فلا ضيْر من ورائها بالمـرَّة لأنها حينئذ ستنتهى إلى هذه النتائج :

١ ـ تعاون كل طبقة فيما بينها لتحسين حالها ومستواها.

٢ ـ تعاون جميع الطبقات من أجل إسـعاد الوطن، والرقى بمستواه وإعزازه.

٣ ـ رحمة الأقوياء بالضعفاء، وعطف الأغنياء على الفقراء، وتعليم العالم للجاهل.

٤ ـ شيوع الحبِّ والمودة، الأمر الذى يؤدى إلى الوحدة والترابط، وعدم تمكن الأعداء من النَّيل من الأمـة.

مواجهة الإسلام لمشكلة الطبقية :

ويواجه الإسلام مشكلة الطبقية بهذه التعاليم :

١ ـ إعلان أن الناس سواء أمام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يتفاضلون بمال ، أو جاه، أو ولد، وإنما يكون التفاضل بالتقوى المتمثلة فى الإيمان والعمل الصالح، من باب أن كلَّ تقدم غير التقوى يمكن أن يؤدى إلى شرور ومفاسد لا حصر لها، أمَّا التقوى فإنها تؤدى دائمًا إلى كلِّ خير وفلاح.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء : ١] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

٢ ـ ودعوة الجميع إلى العمل مع الإتقان والإحسان، وتحرِّى الحلال.

قال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة] .

وقال تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ [النحل : ١١٤] .

وعن المقدام أن النبى ﷺ قال: « ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا مِنْ أن يأكل مِنْ عمل يده، وإن نبىَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» (١) .

وعن شدَّاد بن أوس أن النبىَّ ﷺ قال: « إن الله كتب الإحسان على كلِّ شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذَبحتمُ، فأحسنوا الذِّبحْ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِح ذبيحته» (٢).

٣ ـ الترغيب فى التواضع والإغراء به، مع الترهيب والتحذير من الإعجاب بالنفس، والغرور، والتكبر.

---

(١) الحديث أخرجه البخارىُّ فى : الصحيح : كتاب البيوع: باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/ ٧٤.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الصيد والذَّبائح: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة ٣/ ١٥٤٨ رقم ١٩٥٥ .

قال تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال : « ما نقصتْ صدقةٌ من مال، ومازاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رَفَعَهُ الله» (١) .

وعن أبى هريرة أيضًا أن النبى ﷺ قال : «بينما رجلٌ يمشى فى حُلَّة تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ (٢) ، إذ خسف الله به فهو يتجلجل (٣) إلى يوم القيامة» (٤) .

وعن عبدالله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : «لا يدخل الجنَّة مَنْ كان فى قلبه مثقال ذرَّةٍ مِنْ كِبر . . . » (٥) .

٤ ـ النهى عن النيل من الآخرين فى أىِّ صورةٍ من صوره.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات] .

٥ ـ الحثُّ على التعاون والتراحم، والاحترام والتقدير.

قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

[المائدة: ٢]

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: « مَثَلُ المؤمنين فى توادِّهم،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع ٤/٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ .

(٢) مرجِّلٌ جُمَّتَه : أى مُسرِّحٌ ما سقط على المنكبين من شعر رأسه، إذ الجمَّة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ١٧٩ .

(٣) يتجلجل: أى يغوص فى الأرض يخسف به، والجلجلة: حركة مع صوت. انظر: النهاية ١/ ١٧٠ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب اللباس: باب مَنْ جرَّ ثوبه من الخيلاء ٧/ ١٨٣ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر وبيانه ١/ ٩٣ رقم ١٤٩ .

وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» (١) .

وعن أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: إنِّى سابتُ رجلا، فَعَيَّرتُهُ بأُمِّه، فقال لى النبى ﷺ : «يا أبا ذر، أعيَّرْتَهُ بأُمِّه، إنَّك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوهُ تحت يده، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يأكُل، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يلبَس، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كَلفتموهم فَأعينوهم» (٢) .

وعن أبى سعيد الخدرىِّ رضي الله عنه قال : بينما نحن فى سفرٍ مع النَّبىِّ ﷺ إذ جاء رجلٍ على راحلة له، قال: فجعل يصرفُ بَصَرَهُ يمينًا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ كان معه فَضل ظهرٍ(٣) فليَعُدْ به(٤) على مَنْ لا ظَهرَ له، ومَنْ كان له فَضْلٌ زادٍ فليَعُدْ به على مَنْ لا زادَ له».

قال: فذكرَ مِنْ أصنافِ المال ما ذكر، حتى رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ مِنَّا فى فضل(٥).

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البِّر والصِّلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤/ ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ رقم ٢٥٨٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب المعاصى مِنْ أمر الجاهلية ١/ ١٤.

(٣) فضل ظهر : زيادة ما يُركب على ظهره من الدَّوابِّ، وخصَّه اللغويون بالإبل، انظر: النهاية لابن الأثير ٣/ ٥٩ بتصرف.

(٤) فَلْيَعُدْ بِهِ: فليرجع به، تقول : عاد الشىء يَعُودُ عَوْدًا، ومَعَادًا : أى رجع، انظر : النهاية لابن الأثير ٣/ ١٣٧ بتصرف يسير.

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب اللقطة: باب استحباب المواساة بفضول المال ٣/ ١٣٥٤ رقم ١٧٢٨ .

الفصل الخامس

الاتجاهات فى تفسير الكون والحياة
وما ترتَّب عليها من سلوكيات

الاتجاهات الخاطئة فى تفسير الكون والحياة، وما ترتَّب عليها من سلوكيات:

حين ابتعد النَّاس عن أنوار الوحى، وألْغَوا عقولهم، وتبعوا أهواءهم، وأنصتوا لإيحاءات الشياطين، اختلفوا فى تفسير الكون والحياة، وكانت لهم اتجاهاتٌ خاطئة، وسلوكياتٌ منحرفة، ودونك البيان :

١ ـ اتجاه فلاسفة اليونـان :

زعم أكثر فلاسفة اليونان أن الكون والحياة وُجِدا بذاتهما، وأن الذى يحركهما الحركة الدَّائبة المستمرة إنما هى طائفة من الآلهة تَخيَّلها هؤلاء، وصنعوا لها تماثيل بأيديهم، هذا إلهُ المطر، وهذا إلهُ الرعد، وهذا إلهُ الكواكب، وهذا إلهُ الرياح، وهذا إلهُ الخصب، وهذا إلهُ البحار والأنهار. . . آلهة متعددة بتعدد ظواهر الكون والحياة.

وقلة منهم هُدُوا إلى أن وراء خَلْق الكون والحياة، وحركتهما الدائبة المستمرة إلهًا واحدًا موصوفًا بالكمال، مُنزَّهًا عن النقص، ولكنَّهم غالوا إلى حدٍّ أن زعموا أن هذا الإله انقطع عن خلقه بعد أن خلقهم وسكن برجًا عاجيا ، ولم يعد يدرى شيئًا عنهم، وأن العالم بنقائصه يحاول محاكاة هذا الإله الكامل، وبتلك المحاكاة يتم كل شىء فى الوجود من الولادة، والموت، والمطر، والخصب، والصحة، والمرض، والغنى، والفقر. . . وهكذا.

ونشأت فيهم تبعًا لذلك سلوكيات منحرفة من تقديم القرابين لهذه الآلهة، والزنى، وشرب الخمر، وأكل الميتة، ونحوها، حيث انتشرت الرذيلة، وانكمشت الفضيلة.

٢ ـ اتجـاه الرومـان :

ولم يكن الرومـان أحسن حالا من اليونانيين، فقد رَدُّوا خَلْقَ الكون والحيـاة إلى آلهة صنعوا لها التماثيل والصور، وأكبوا على عبادتها من دون الله، وتبعًا لذلك شاعتْ فيهم سلوكيات منحرفة لا حصر لها كذلك من: الزنى، وشرب الخمر، وسفك الدماء، وزيادة الضرائب والإتاوات، والمصارعة العنيفة بين البشر، أو بينهم وبين السِّباع،

والثيران، أو بين الحيوانات والطيور، حيث كانوا يتلذذون بقتل المصارعين بعضهم بعضًا، أو بمشاهدة القتلى ساعة الاحتضار وهم يتأوَّهون ويئنون، وانتشر الترف، والتبذير، والعلوُّ، والاستكبار فى الأرض، وتقسيمُ المجتمع إلى سادة وعبيد، وتكليف هؤلاء العبيد بالأعمال الشاقة مع ضربهم، وإذلالهم، وإهانتهم، إلى غير ذلك من هذه السُّلوكيات .

٣ ـ اتجاه العرب :

أمَّا العرب فقد ردُّوا خَلْقَ الكون والحياة، وتدبير شؤونهما إلى الله ـ عزَّ وجلَّ .

قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] .

ولكنهم توجهوا بالعبادة والطاعة إلى آلهة صنعوها بأيديهم من الحجارة، والخشب، والتراب، والعجوة، بدعوى أنها تقربهم من الله كثيرًا، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] .

وشاعت فيها تبعًا لهذا الاتجاه سلوكيات منحرفة منها:

وأد البنات، وتجارة الرقيق، وإنقاص الكيل والميزان، وشرب الخمر، ولعب الميسر (القمار)، وسفك الدماء لأتفه الأسباب، وقطع الطريق، وأكل الميتة، وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات . . . وغيرها.

٤ ـ اتجاهات الحضارة الحديثة :

وفى الحضارة الحديثة شاعت اتجاهات فى تفسير الكون والحياة، منها:

أن الصدفة ـ وبعبارة أخرى: الأسباب والمسبَّبات ـ هى التى خلقت الكون والحياة، وهى التى تدبر حركتهما.

ومنها : أن الله هو خالق الكون والحياة، ولكن معه أبناء يشاركونه تدبير وتصريف شؤونهما، مثل اعتقاد اليهود : أن عُزيرًا ابن الله، واعتقاد النصارى: أن المسيح ابن الله.

قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾

[التوبة: ٣٠]

وتبعًا لهذين الاتجاهين شاعت سلوكيات غاية فى الانحراف من: الزنى، وشرب الخمر، وسفك الدماء، وأكل أموال الناس بالباطل، مرَّة عن طريق الربا، ومرَّةً عن طريق الغش، ومرَّةً عن طريق الرشوة، ومرَّة عن طريق السرقة، ومرَّة عن طريق الغصب، ومرَّة عن طريق التجارة فى المحرمات من صناعة التماثيل، أو بيع الخمور، أو الرقيق الأبيض، أو الأطفال، بل اتسع أمر الجريمة إلى حد احتلال بلاد بأسرها، ومصادرة خيراتها، وثرواتها، واستعباد أبنائها... وهكذا.

الاتجاه الصحيح فى تفسير الكون والحياة :

والاتجاه الصحيح فى تفسير الكون والحياة ما جاء به الإسلام مِنْ أنَّ الله خالق الكون والحياة، ومدبِّرومُصرِّف شؤونهما ، وأن الخَلْقَ وإن طال بهم الزمان صائرون إلى الله للسؤال والحساب، والجزاء بالسوء سوءًا، والإحسان إحسانًا.

ومنطلق الإسلام فى ذلك أنَّ كلَّ صنعة لابدَّ لها من صانع، وكل أثر لابد له من مؤثر، ويستحيل أن ينشأ هذا الكون بإبداعه وترتيبه ونظامه، وهداية كل مخلوق فيه لوظيفته من العدم، أو من تلقاء نفسه، بل لابد له من خالق مدبر، هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور] .

وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم] .

وتبعًا لهذا الاتجاه فى تفسير الكون والحياة يوجب الإسلام أن تكون العبادة لله وحده.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الانعام].

السلوكيات المترتبة على التفسير الصحيح للكون والحياة :

والسُّلوكيات المترتبة على التفسير الصحيح للكون والحياة هى الشعائر التعبدية، والنظم، والتشريعات، والأخلاق من: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، ونظم وتشريعات المال، والدماء، والأعراض، والأسرة، والعلاقات الاجتماعية نحو الأهل، والأولاد، والأبوين، والأرحام، والجيران، والأصدقاء، والأعداء... وغيرهم، ومن الصِّدق، والأمانة، والعدل، والوفاء، والرحمة، وكظم الغيظ، والعفو، والإحسان، والتواضع، ونحوها من السلوكيات الكفيلة بحماية كل نهوض وتقدم حضارى .

سبيل إقناع غير المسلمين بدور الإسلام فى حماية الحضارة المعاصرة :

وسبيل إقناع غير المسلمين بدور الإسلام فى حماية الحضارة المعاصرة أن يكون المسلمون صورة صحيحة عملية لهذا الإسلام، وهذا يتطلب منهم:

١ ـ الاهتمام بالعلم لاسيَّما العلم التجريبى، وإشاعته بينهم.

٢ ـ فقه الإسلام فقهًا شموليا وسطا بين الإفراط والتفريط.

٣ ـ نشر مبادئ الإسلام بالحكمة الموعظة الحسنة.

٤ ـ الإفادة من علوم ومعارف الأمم الأخرى شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الإسلام، فالحكمة ضَالَّةُ المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها ، وتوظيفها فى كل شؤون الحياة.

٥ ـ الالتزام بالقيم والمبادئ الإسلامية التى مضى الحديث عنها فى الفقرة الماضية، فيصبحون دعاة لهذا الدين بالقدوة والسلوك قبل أن يكونوا دعاة له بالقول، والكلمة.

٦ ـ تعريف الآخرين بحاجة الحضارة المعاصرة إلى قيم ومبادئ وأخلاق الإسلام.

وهكذا لو أعطى المسلمون الآخرين الصورة الصحيحة للإسلام، فإن ذلك يمكن أن يؤثر فى هؤلاء، فيُسلمون أو لا يُعادون الإسلام،وتعود للمسلمين خيْريَّتهم ، ومكانتهم التى أرادها الله لهم يوم أن أخرجهم للناس.

قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

* * *

الفصل السادس

مشكلة العدوان الدولى.. وموقف الإسلام منها

من أسباب العدوان الدولى :

عانت الإنسانية من قديم، ومازالتْ تعانى مِنْ عدوان الدول القوية على الدول الضعيفة ممثلا فى احتلال الأرض، والاستيلاء على الخيرات والثروات، وإذلال واستعباد أهل وشعوب هذه الدول، وحرمانهم من أبسط الحقوق،وهو حقُّ الحرية.

ولاشكَّ أنَّ هناك أسبابًا كثيرة تقف وراء هذا العدوان، ومنها:

١ ـ ضعف أو صغر حجم بعض الدول لقلة فى الموارد البشرية، أو المالية، أو فى وسائل الدفاع، والحماية، مع قوة المعتدى فى هذه النواحى.

٢ ـ الطغيان والجبروت عند قادة بعض الدول مع الرغبة فى التسلط وقهر وإذلال الآخرين.

٣ ـ استجابة المعتدى لإيحاء جهات أكبر وأقوى لها مصلحة عند الدول المعتدى عليها، ولا تستطيع الوصول لتحقيق هذه المصلحة إلا عن طريق هذا العدوان.

٤ ـ فشل بعض القادة فى تحقيق الكفاية لشعوبهم، مع محاولتهم تغطية هذا الفشل، وتحقيق هذه الكفاية عن طريق العدوان على الآخرين.

إلى غير ذلك من الأسباب.

آثار العدوان الدولى :

وهناك آثار تترتب على العدوان الدولى، منها :

١ ـ سلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإراقة الدماء.

٢ ـ زرع بذور الشقاق والفرقة بين بنى الإنسان.

٣ ـ توقف أو تعثر منهاج التنمية والنُّمو ، حيث يشغل أبناء البلد المعتدى عليه بمقاومة المعتدى لطرده، والتخلص من عدوانه.

٤ ـ فتح باب التدخل أمام قوى أكبر وأعظم لتحقيق مصالح، ما كان لهذه القوى أن تحققها لولا هذا العدوان.

موقف الإسلام من العدوان الدولى :

والإسلام يرفض العدوان الدولى بكل أشكاله وصوره لآثاره المدمرة التى مرَّ ذكرها آنفًا، ويتجلى هذا الرفض فى هذه المبادئ :

١ ـ تحريم العدوان على الدماء، والأموال، والأعراض:

إذ يقول الله ـ تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

[الأنعام: ١٥١، والإسراء: ٣٣]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ويقول النبىُّ ﷺ : «كُل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعِرضه. . .»(١).

٢ ـ تحريم الاستكانة، والرضا بالذل والهوان:

إذ يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء : ١٠٤] .

ويقول تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ [آل عمران] .

٣ ـ وجوب مقاومة المعتدى بكلِّ الأساليب والوسائل التى تردعه وتحمله على التخلى عن عدوانه:

إذ يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾

[البقرة: ١٩٠]

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١)﴾ [الشورى] .

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٤.

٤ ـ مكافأة مَنْ قُتِل دفاعًا عن دمه، وماله، وعرضه بالشهادة:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجل يريدُ أخذَ مالى؟ قال: «فلا تعطه مَالك».

قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتله».

قال: أرأيت إن قَتَلَنى؟ قال: «فأنتَ شهيد».

قال: أرأيت إن قَتَلتُـهُ؟ قال: «هو فى النار» (١).

وعن سعيد بن زيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قُتِـلَ دون ماله فهو شهيد، ومَنْ قُتِـلَ دون دينـه فهو شهيد، ومَنْ قُتِـلَ دون دمه فهو شهيد، ومَنْ قُتِـل دون أهله فهو شهيد» (٢).

الفتوحات الإسلامية ليست عدوانًا على الآخرين:

ولا يقولَـنَّ قائل: كيف نوفِّق بين هذا الموقف للإسلام من العدوان وبين توسعه وسيطرته إبان قوته وازدهاره على كثير من بلدان ودول العالم؟

والجواب: أنه لا تعارض؛ لأنَّ التوسع الإسلامى، وبسط السلطان على كثير من بلدان ودول العالم إنما كان هدفه: رفع الظلم، والقهر، والإهانة، والاستعباد، تلك التى كانت تعانى منها شعوب هذه البلدان، والدول.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

ويؤكد صدق هذا الهدف أن المسلمين إبان استمساكهم بالإسلام واعتزازهم به، ما كانوا يُكرِهون أهل بلد أو دولة فتحوها على الدخول فيه. وإنما كانوا يطلبون الالتزام بأحكام الإسلام التى تكفل الحرية للجميع، وترفع الظلم والقهر عن المظلومين، والمستضعفين، ويبقى الناس بعد ذلك يدينون بما يحبون.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن مَنْ قصد أخذ مال غيره بغير حقٍّ كان القاصد مهدر الدم فى حقه... ١/ ١٢٤ رقم ١٤٠.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السُّنن: كتاب الديات: باب ما جاء فيمن قُتِل دون ماله فهو شهيد ٤/ ٢٢ رقم ١٤٢١ بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن».

كما يؤكد صدقه كذلك: محبة أهل هذه البلاد للمسلمين الفاتحين، ودخولهم فى الإسلام، وتحوّلهم من مستضعفين إلى أقوياء أعـزَّة يعملون على رفع الظلم عن كلِّ مَنْ يعانون منه، كما حدث فى مصر، وإندونيسيا، وفى الأندلس... وغيرها.

ولذا يحسن تسمية توسع المسلمين هذا : فتحًا، لا احتلالا وعدوانًا، وما سجَّله الواقع عن المسلمين فى بعض فترات التاريخ غير ذلك فإنما مردُّه، ومرجعه : ضعف الإسلام فى نفوس المسلمين واتباعهم الهوى ، والاستجابة لوساوس شياطين الإنس والجن.

وكان لهذا أثر عكسى تمثل فى كراهة أهل هذه البلاد والدول للمسلمين، ومقاومتهم بكل الأساليب والوسائل لإجلائهم وطردهم، كما حدث للمسلمين فى الأندلس فى أواخر عهدهم بها.

الدفاع عن الحريات ، ورفع الظلم عن المظلومين ليس عدوانًا :

ويدخل فى هذا ما تقوم به بعض الدول الكبرى اليوم من التدخل السريع فى بعض البلدان دفاعًا عن حريات أهلها، ورفع الظلم والمعاناة عنهم، ولكن الذى يُخشى من وراء هذا التدخل أن يتحوَّل إلى احتلال من نوع آخر: فكريا، وثقافيا، واقتصاديا، وسياسيا، نظرًا لأن هؤلاء لا يملكون منهاجًا كالمنهاج الإسلامى الذى أساسه وسبناه: الرحمة، والمساواة، والعدل حتى مع الأعداء، إذ يقول الله ـ عزَّ وجلَّ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] .

ويقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « أمرنا النَّبىُّ ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الدَّاعى، ونصر المظلوم، وإبرار القَسَم [1] ، وردِّ السَّلام، وتشميت العاطس.

---

(١) إبرار القسم : إجابة المقْسِمْ إلى ما أقسم عليه، ومعلوم أنَّ محلَّ ذلك ما لم تكن هناك مفسدة، أو خوف ضرر، أو نحو ذلك، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٧٢، ٧٣ ، المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج للنووى ٤/ ٧٦٧، المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ١/ ٤٨ بتصرف كثير.

ونهانا عن : آنية الفضة، وخاتم الذَّهب، والحرير، والديباج [1] ، والقِسِّيِّ[2] ، والإستبرق [3] » [4] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا ؟ قال: «تأخذ فوق يديه[5] » [6] .

* * *

(١) الديباج : هو الثياب المتخذة من الإبريسم [الحرير] فارسى مُعرَّب: انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ١٠ بتصرف.

(٢) القَسِّيُّ : ثياب مِنْ كتَّان، وحرير كانت تُصنع بمصر والشام، مُضلَّعة، مُزيَّنةٌ بأمثال الأترج، انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٣٤ .

(٣) الإستبرق : الديباج الغليظ ، انظر : المعجم الوسيط ١/١٧، المنهاج فى شرح صحيح مسلم للنووى ٤/ ٧٦٩ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجنائز: باب الأمر باتباع الجنائز ٢/ ٩٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب اللباس والزينة: باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء... ٣/ ١٦٣٥، ١٦٣٦ رقم ٢٠٦٦ واللفظ للبخارى .

(٥) تأخذ فوق يديه: كناية عن كفِّه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، والتعبير بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء، والقوَّة، وقد جاءت هذه الجملة مفسَّرة فى رواية البخارى فى: كتاب الإكراه: باب يمين الرجل لصاحبه إنَّه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه... ٩/ ٢٨ ـ ٢٩ بقوله ﷺ : « تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره» .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب أعِنْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا ٣/ ١٦٨ .

الفصل السابع
مشكلة الوطنية والقومية.. وموقف الإسلام منها

تقديم :

ظهر مصطلح «الوطنية والقومية» أول ما ظهر فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إبان مرحلة كفاح الدول الصغرى هناك من أجل التخلص من سيطرة الدول الكبرى، وكان الحامل عليه آنذاك تجميع صفُّ شعب كل دولة من هذه الدول، وتوحيد كلمته، وتحريكه من داخله ليستعيد استقلاله ، ويسترد عزَّته وكرامته.

ثم انتقل إلى العالم العربى والإسلامى فى نهاية القرن التاسع عشر عندما قامت حركات الكفاح والتحرر من سيطرة المستعمرين، حاملا معه نفس الأهداف التى أدَّت إلى ظهوره مِنْ قبل فى أوروبا، بل أضيف إليه هدف جديد خلاصته وفحواه: أنَّه إذا تحرر بلد مَّا من هذه البلاد أو قوم من سيطرة المستعمرين فلا شأن لهم بالبلاد والأقوام الآخرين، وإن نزل بهم من الضيم والهوان ما نزل.

ولما كان هذا الهدف مما يتعارض مع أبسط مبادئ الأخوَّة الإنسانية والإيمانية، وربما أدى تعميقه والسكوت عليه إلى استباحة العدوان على الآخرين بإذلالهم، والسيطرة على أوطانهم، واستغلال خيراتهم وثرواتهم: كان من الضرورى عرض هذه المشكلة ، وبيان موقف الإسلام منها، وذلك من خلال هذه الفقرات.

تعريف الوطنية والقومية :

الوطنية : مصدر صناعى [1] للوطن ، والوطن فى اللغة : محلُّ سكن الإنسان مطلقًا . تقول: استوطن القوم هذه الأرض ، وتوطنوها : اتخذوها سكنًا [2] ـ وُلِد بها أو لم يولد .

---

(١) المصدر الصناعي : ما انتهى بياء مشدَّدة وتاء مأخوذًا من المصدر كالخصوصية، والفروسية، أو من أسماء الأعيان كالصَّخْرية، والخشبية، أو من المشتقات كالمسؤولية والحرية، أو من أداة من أدوات الكلام كالكمية، والكيفية، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ١٠٤٣ بتصرف .

وهو عند السياسيين : المكان الذى يُنسب المرء إليه ويؤدى واجبه نحوه، ويأخذ منه حقه، فيأمن فيه على نفسه، وأهله، وذويه، وماله، فإن لم يتمكن من أداء الواجب نحو هذا الوطن، ولم يظفر بحقِّه منه فليس بوطن، حتى قيل: «لاوطن إلا مع الحرية»، أو «لا وطن فى حالة الاستبداد»[1] .

والوطنية تبعًا لذلك هى : الدعوة إلى التجمُّع ، والوحدة على أساس الوطن أو الأرض[2] .

وعند الفلاسفة: «الدعوة إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة، وطنها العالم، وأعضاؤها أفراد البشر جميعًا، دون اعتبار لاختلافهم فى اللغة، أو فى الجنس، أو فى الوطن ، وقد تبنَّى هذا التعريف بعض المحدثين، والمعاصرين[3] .

القومية : مصدر صناعى للقوم، والقوم فى اللغة: الجماعة من النَّاس تجمعهم رابطة أو غاية واحدة [4] .

وعند السياسيين والاجتماعيين: الجماعة من النَّاس تجمعهم رابطة الوطن، والجنس، واللغة، وسائر المصالح سوى الدين[5] .

والقومية تبعًا لذلك هى : الدعوة إلى التجمع، والوحدة على أساس من الاشتراك فى الوطن، والجنس، واللغة، وسائر المصالح سوى الدين[6] .

موقف الإسلام من الوطنية :

والإسلام لا يرفض الوطنية ، بل يؤيدها، ويحتضنها فى هذه الأحوال:

١ ـ إذا كان المراد بها حبَّ الوطن، والشوق، والحنين إليه لاسيَّما عند مفارقته والغياب عنه، إذ هى أمر فطرى فى النفوس، حتى قال القائل:

بلادٌ ألفناها على كلِّ حالةٍ ... وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسن

وتستعذب الأرض التى لا هوى بها ... ولا ماؤها عذبٌ ولكنَّها وطن

(١، ٢) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، للدكتور محمد حسين ١/ ٧٠ .

(٣) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم، ص ١٢٩٩ .

(٤) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٨ بتصرف.

(٥، ٦) انظر : الصِّحاح فى اللغة والعلوم ص ٩٦٧ ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٨ بتصرف.

والإسلام ما جاء ليصادم الفطرة، وإنما ليسمو بها ويحافظ عليها.

٢ ـ إذا كان المراد بها وجوب العمل بجدٍّ، وإخلاصٍ من أجل تحرير الوطن من الغاصبين وغرس مبادئ العزة والحرية فى نفوس أبنائه، إذ هذا من المبادئ التى عمل الإسلام على إقرارها وتحقيقها فى واقع الحياة وفى النفس.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾﴾ [النساء].

٣ ـ إذا كان المراد بها عمارة هذا الوطن، والارتقاء بمستواه المادّى والمعنوى.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

٤ ـ إذا كان المرادُ بها تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية فى مصالحهم.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا...» الحديث (١).

ويرفض الإسلام هذه الوطنية فى هاتين الحالتين:

١ ـ إذا كان المرادُ بها تقسيم الأمة إلى طوائف يبغض بعضها بعضًا، ويكيد بعضها لبعض، وتتشيع لمناهج وضعية، ما أنزل الله بها من سلطان، لأن هذا مما يمكّن الأعداء من رقاب الأمة، وفى ذلك من الفساد ما فيه.

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ إذا كان المرادُ بها الإغارة والعدوان على أوطان الآخرين بسلبها واستغلال خيراتها، وثرواتها، وإذلال أهلها، لأن هذا يتعارض مع ما قرَّره الإسلام من حرمة الدماء، والأموال، والأعراض(٢).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب البرّ والصِّلة، والآداب: باب تحريم الظنّ، والتجسس، والتنافس، والتناجش، ونحوها ٤/ ١٩٨٥ رقم ٢٥٦٣.

(٢) انظر: مجموعة رسائل الدعوة: دعوتنا ص ١٠٣ ـ ١٠٥ بتصرف.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال فى خطبته فى حجة الوداع فى يوم عرفة :

«إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. . .» الحديث [1] .

التعريف الأمثل للوطنية هو التعريف الإسلامى :

وفى ضوء موقف الإسلام من الوطنية فإن التعريف الجامع لخير الوطنية المانع من شرها هو التعريف الإسلامى، ومضمونه، وفحواه:

«الدعوة إلى اعتبار كلِّ بقعةٍ يعيش عليها مَنْ ينطق بالشهادتين، أو يخضع لسلطانهما، وإن لم ينطق بهما هى الوطن الذى تجب محبته، والعمل على تحريره، وعمارته، وحمايته من الكائدين، و المتربِّصين».

نظراً لأنَّ هذا التعريف يوسع دائرة الوطن، ويجعل العمل من أجل إعزازه وإسعاده أمانة فى عنق كلِّ مسلم عليه أن يبذل نفسه، ودمه، وماله فى سبيل أدائها، كما أنه يقضى على الفرقة بين أبنائه ، ويمنعهم من إيذاء الآخرين حتى لو كانوا غير مسلمين ما داموا متعاونين على الخير.

قال تعالى : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة][2].

موقف الإسلام من القومية :

والإسلام كذلك لا يرفض القومية، بل يؤيدها، ويحتضنها فى هذه الأحوال:

١ ـ إذا كان المرادُ بها : أنه يجب على الخلف أن ينهجوا نهج السَّلف فى مراقى المجد والعظمة، وأن تكون لهم بهم فى ذلك قدوة حسنة.

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الحج: باب حجة النبىِّ ﷺ ٢/٨٨٦ ـ ٨٩٢ رقم ١٢١٨ .

(٢) انظر : مجموعة رسائل الدعوة : دعوتنا ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧ بتصرف.

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبى ﷺ أنه قال : « الناس معادن كمعادن الفضَّـة، والذهب، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا. . .» الحديث [1] .

٢ ـ إذا كان المرادُ بها: أن عشيرة الرجل ، وأمته أولى الناس بخيره وبرِّه وإحسانه، وجهـاده.

عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال : شهدتُ رسول الله ﷺ فى حجـة الوداع ، وهو يقول :

«أمُّك ، وأباك، وأختك، وأخاك، ثم أدناك، أدناك» [2] .

٣ـ إذا كان المرادُ بها: أننا جميعًا مُطالبون بالعمل، والجهاد، فعلى كلِّ جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى نلتقى إن شاء الله تعالى فى ساحة النصر.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ويرفض الإسلام هذه القومية فى هاتين الحالتين :

١ ـ إذا كان المرادُ بها : إحياء عادات جاهلية درست ، وإقامة ذكريات بائدة خَلَتْ مع التحلل مِنْ عقَدة الإسلام ورباطه وإلغاء حضارته.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس منَّـا مَـنْ لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[3].

٢ ـ إذا كان المراد بها : الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدى إلى انتقاص الأجناس الأخرى، والعدوان عليها، والتضحية بها من أجل العزة والبقاء.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أذهب عنكم عُـبيَّة [4] الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقى، وفاجر شقىٌّ، أنتم بنو آدم،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصِّلة والآداب : باب الأرواح جنود مُجنَّدة ٤/ ٢٠٣١، ٢٠٣٢ رقم ٢٦٣٨/ ١٦٠.

(٢) الحديث أورده الحافظ نور الدين الهيثمى فى : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ١٣٩، المجلد الرابع ، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل، وهو ثقة ثَبْت».

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجنائز: باب ليس منَّا مَنْ شقَّ الجيوب ٢/ ١٠٢، ١٠٣.

(٤) العُبيَّة : بضمِّ العين وكسرها: الكِبر والفخر، مأخوذة من العبء وهو: الثقل، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٦١، المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٩ بتصرف.

وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوامهم، إنما هم فحمٌ مِنْ فحم جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجِعلان [1] ، تدفع بأنفها النتن» [2] .

التعريف الأمثل للقومية هو التعريف الإسلامي :

وفى ضوء موقف الإسلام من القومية، فإن التعريف الجامع لخير القومية المانع من شرِّها هو التعريف الإسلامى، ومضمونه، وفحواه :

«الدعوة إلى الترابط والتراحم والتعاون بين الناس على أساس أخوَّة الإسلام والإنسانية».

نظرًا لأن هذا التعريف يجعل الناس فريقين :

فريق التقى على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، فربطتْ بينهم العقيدة برابطة أقدس من رابطة الدم، ورابطة الأرض، وواجب كلُّ واحدٍ فيه أن يفدى أخاه بالنَّفْسِ والمال فى أىِّ أرض كان، ومن أىِّ سلالة انحدر.

وفريق لم يرتبط إلا برباط الإنسانية، وواجبه نحو غيره من إخوانه: التعاون، والمسالمة، والتراحم، والدلالة على الخير، وواجب الفريق الأول نحوه: المسالمة ما سالم، وحبُّ الخير ما كفَّ عدوانه عنه، بل دعوته إلى ما فيه خيره وفلاحه فى الدنيا والآخرة[3] .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « . . . وكونوا عباد الله كما أمركم الله » [4] .

* * *

(١) الجِعْلان : جمع جُعَل : حيوان كالخنفساء يكثر فى المواضع النديَّة، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٢٦٦، المعجم الوسيط ٢/ ١٢٦ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى التفاخر بالأحساب ٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠ رقم ٥١١٦ .

(٣) انظر : مجموعة رسائل الدعوة : دعوتنا ، ص ١٠٧ ـ ١١٢ بتصرف.

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب تحريم الظَّنِّ . . . ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٣ / ٣٠ .